

تحسين الأخلاق

كتبها : الشيخ عبد الرزاق طاهر فارح

26 رجب 1436 هـ
2015/05/15 م

أحبتني في الله ، ،

تحدثت في الخطبة الماضية عن مكارم الأخلاق ومحاسن الأخلاق . والسؤال الآن هو: هل من سبيل لتحسين أخلاقنا؟ وهل من طرق يمكن بها تحسين أخلاقنا والإجابة للسؤالين هي: نعم .

الأخلاق أيها الأحبة نوعان : أخلاق جبلية فطرية ، وأخلاق مكتسبة . النوع الأول من أنواع الأخلاق هو نوع جبلي فطري خلق الله عزّ وجلّ الإنسان بهذه الأخلاق . والدليل هو ما رواه مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال يوماً للأشج عبد القيس : {إنّ فيك خصلتين} وفي لفظ {خلتين يحبهما الله عزّ وجلّ ، الحلم والأناة} . وفي رواية ابن ماجه بسند حسن {الحلم والحياء} . لكن في رواية البخاري في الأدب المفرد وفي رواية الإمام أحمد في المسند بسند صحيح أن أشج عبد القيس قال : يارسول الله ، أنا أتخلق بهما أم الله جبلي عليهما؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : {بل الله جبلك عليهما} . وهذا دليل على أن هناك من الأخلاق الكريمة ما هو فطري أودعه الله عزّ وجلّ في الإنسان . فترى هذا متخلقاً بالأدب ، وترى هذا متخلقاً بالحناء ، وترى هذا لا يتكلم إلا وهو صادق ، وترى ذلك إن تعامل معك ، تعامل معك بمروءة وأناة وخلق وأدب . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

النوع الآخر من أنواع الأخلاق هو الأخلاق المكتسبة ، وهي الأخلاق التي يكتسبها الإنسان بالتعلم والتخلق . وكما تعلمون يا عباد الله قد يكتسب الإنسان الخلق الكريمة إذا وُضِع الإنسان في بيئة كريمة ، وابتعد عن بيئة الشر والفساد والمفسدين . قال الله جلّ وعلا : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) } { 87 : 14-15 . وقال جلّ وعلا : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) } { 91 : 9-10 . فمن طهر نفسه من العيوب ، ورقاها بالبعد عن الذنوب ورقاها بطاعة علام الغيوب، فهذا هو الذي تخلق بالأخلاق الكريمة ، وحاول أن يكتسب الأخلاق الكريمة النبيلة . فصلاح أمرك للأخلاق مرجعه ، فقوّم النفس بالإخلاق تستقم . إنظروا إلى سيرة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كيف كانوا ، وما الذي ساروا إليه . فهذا عمر رضي الله عنه يقول يوماً للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لأنت أحب إليّ من كل شيءٍ إلا من نفسي . فقال: { لا يا عمر ، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك} . قال عمر : فأنت والله يا رسول الله أحبّ إليّ من نفسي . قال : {الآن يا عمر}.

يقول الإمام الخطابي كما نقل ذلك عنه حافظ ابن حجر في الفتح ، حُب الإنسان نفسه طبع ، وحب الإنسان غيره إختيار بتوسط الأسباب . وما طلب النبي صلى الله عليه وسلم من عمر حُب طبع ، إذ لا سبيل إلى قلب إطباع عمّا جُبِل عليه . وإنما طلب منه حُب إختيار بتوسط

الأسباب . فلما نظر عمر في الأسباب ، ووجد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان سبب نجاته من هلاك الدنيا وعذاب الله في الآخرة ، علم أنه لا قيمة له بدون رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقرّ حينئذ وقال : والذي بعثك بالحق لأنت أحبُّ إليّ من نفسي يا رسول الله . فلولا رسول الله لهلك عمر . وهذا هو جانب الكسب الذي يكتسبه الإنسان من النظر في الأسباب .

ما هي الأسباب المعينة على تحقيق حُسن الأخلاق عن طريق الإكتساب .

السبب الأول : صدق الإستعانة بالله جلّ وعلا . بالتضرع والتذلل إليه أن يرزقك مكارم الأخلاق ومحاسن الأخلاق . إسمع إلى من كان كان خلقه القرآن يتضرّع إلى الله جلّ وعلا أن يرزقه حُسن الخلق فيقول كما في مسند أحمد بسند صحيح من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : {اللهم كما حسّنت خلقي فحسّن خلقي} . وفي رواية مسلم من حديث علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو الله عزّ وجل ويقول : {اللهم إهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت . واصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت . اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والدّواء} .

السبب الثاني: المجاهدة . وهو سبب عظيم من أسباب تغيّر الأخلاق وتحسينها . لا تستسلم لمساوئ الأخلاق ، ولا تستسلم لفحش القول ولا لفحش الفعل . قال تعالى : {وَالَّذِينَ

جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } 29: 69 .

السبب الثالث : محاسبة النفس . حاسب نفسك عن كل كلمة ، واعلم أن المؤمن وقاف يحاسب نفسه ليلاً ونهاراً عن كل كلمة ، وعن كل فعل وكل سلوك .

السبب الرابع : الهمة العالية . كن صاحب همة عالية واعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله تعالى بقلبه وهيمته ، لا ببذنه . فالتقوى في الحقيقة ، هي تقوى القلوب ، لا تقوى الجوارح .

السبب الخامس : مصاحبة الأخيار . مصاحبة الأخيار من أصحاب الأخرلاق الكريمة . فالمرء على دين خليله . وسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : {إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير . فحامل المسك : إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه . وإما أن تجد منه ريحاً طيبة . ونافخ الكير ، إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة}.

ثم طالع سير السلف الصالح ، سير الأبرار . فمن طالع سير هؤلاء شعر بظئالة نفسه وحقارة نفسه ، وجاهد نفسه وحاسبها في تقصيره .

عباد الله ، هذه أسباب يجعلها الله جلّ وعلا عوناً لنا على إكتساب الأخلاق الحميدة الكريمة .
وأختم بهذه الآية الكريمة : { . . . وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ
وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا } 4 : 66 .